الرجال في عيون النساء

بقلم: سوف عبيد

إذا كان الغزل في الشعر العربي قائما في أغلبه على غزل الرجال بالنساء فإنّ بعض الأخبار الواردة في كتب التراث تؤكد على أنّ المرأة العربية في كل العصور قد عبّرت هي أيضا عن ولعها بالرجل وتعلقها بصفات الكمال والجمال فيه.

فهذه أم أبان بنت عتبة بن ربيعة قد خطبها عمر بن الخطاب بعد أن مات عنها زوجها يزيد بن أبي سفيان فقالت عندئذ: إنه لا يدخل إلا عابسا ولا يخرج إلا عابسا، ثم خطبها الزبير فقالت: يد له على السوط ويد له على قروني، وخطبها علي بن أبي طالب فقالت: ليس للنساء فيه حظ، وخطبها طلحة فأجابت وتزوجته.

فما كان من علي بن أبي طالب إلا أن دخل عليها ذات يوم وقال لها: رددت منا من رددت وتزوجت ابن بنت الحضرمي!.

فقالت له: القضاء والقدر! فقال علي: بل إنك تزوجتِه أجملنا مراة وأجودنا كفا وأكثرنا خيرا على أهله.

وكأنه بذلك حدّد الصفات المحببة في الرّجل لدى المرأة..

ويروي كذلك أنّ أبا بكر كان قد مرّ في خلافته بطريق من طرق المدينة فسمع إحدى الجواري تنشد:

وعشقته من قبل قطع تمائمي
متمايسا مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر سنة وجهه
ينمو ويصعد في دؤابه هاشم
وأنا التي لعب الغرام بقلبها
فبكت بحب محمد بن القاسم!

فدق عليها الباب فخرجت إليه فقال: ويلك! أحرّة أم مملوكة؟ قالت: مملوكة فبعث إلى مولاها واشتراها منه وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال له: هؤلاء فتن الرجال، فكم مات بهنّ كريم واتهم بهن سليم!.

وهـذه الواقعـة الـتي نقلهـا أبـو غسـان المهـدي تـبين لنـا مـدى سماحة الأبي بكـر فـي مثـل هـذه المواقـف الـتي تفضـح فيهـا المرأة عواطفها.
وتروي قصة أخـرى عـن امـرأة مـن نسـاء المدينـة أيضـا، فقـد عشقت فتى من بني سليم يقال له نصر بـن حجـاج الـذي كـان أحسن أهل زمانه وجها حتى ضنيت من حبه ومن الوجد به حتى لهجت بذكره ذات ليلة قائلة:
هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج!
فسمعها عمـر بـن الخطـاب وهـو مـارّ بـدارها عنـد غنائهـا لهـذا البيت، فلما أصبح دعاه وقال له: لقد فتنت نساء المدينة يا ابـن حجاج فقال له: وأيّ ذنب لي في ذلك يا أمير المؤمنين؟
قال عمر: صلقت، الذنب لي أن تركتك في دار الهجرة:
ثم أركبه جملا وسيره إلى البصرة فكتـب نصـر بـن حجـاج إليـه قائلا:
ظننت بي الظنّ الذي ليس بعده
بقاء، فما لي في الندي كلام
وأصبحت منفيا على ير ريبة
وقد كان لي بالمكتين مقام
سيمنعني مما تظن تكرمي
وآباء صدق سالفون كرام
فلما بلغ هذا الشعر عمر بن الخطاب لم يأذن لـه بـالعودة إلـى المدينة واقطعه أرضا ودارا بالبصرة.
نلاحظ بعد ذلك أنّ المجتمـع العربـي فـي المـدن والأمصـار قـد تحـول عـن قيمـه القديمـة بسـبب الخيـرات الـتي وردت مـن الفتوحات فأصبح السلم الاجتماعي يقوم على ركائز أخرى غيـر الفتوة والنسب وبدأت قيم جديدة منهـا المـال والـثراء يحسـب لها الحساب في مكانة الرجل وحظوته لدى المرأة.
فعندما مرّ رجل من بني سعد بحي من أحياء العرب لمـح فتـاة بارعة الحسن فخطبها فسـألت عـن حرقتـه ومـا لـه فقـال لهـا شعرا:

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي
مقارعة الأبطال في كل شارق
إذا عرضت خيل لخيل رأيتني
أمام رعيل الخيل أحمي حقائبي
فما كان من الفتاة إل أن كتبت إليه قائلة:
ألا إنما أبغي جوادا بماله
كريما محياه كثير الحدائق
فتى همه مذ كان خودا خريدة
يعانقها في الليل فوق النمارق!
فشتان بين صورة فتى الأحلام لدى هـذه الفتـاة المنعمـة وبيـن هذا الفارس الذي فات أوانه في ذلك العصر.
ففي تاريـخ الأدب العربـي ثمـة أخبـار عديـدة تثبـت أنّ المـرأة العربية قد أمكن لها في كثير من المناسبات أن تعبر عـن رأيهـا في اختيار زوجها حسب ذوقها الخـاص مثـل هـذه المـرأة الـتي تقدم لخطبتها شيخ وكهل وشاب فقالت مبينة قرارها:
أيا رب لا تجعل شبابي وبهجتي
لشيخ يعنين ولا لغلام
ولكن لكهل قد علا الشيب رأسه
فروج لا حراج النساء حسام
فقد اختارت هذه المرأة الرجل الكهل الذي جرب أمـور الحيـاة والذي قد لاح الشيب عليه فهو كالحسام مضاء وعزما.
وبعد:
فمن قال إن الغزل من نصيب الرجال في النساء فقط!